العنوان:	الإمام ابن حزم: دروس في مداواة النفوس
المصدر:	الوعي الإسلامي
الناشر:	وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية
المؤلف الرئيسي:	بدر الدين، محمد بن حسن
المجلد/العدد:	س54, ع620
محكمة:	لا
التاريخ الميلادي:	2017
الشهر:	يناير
الصفحات:	37 - 39
رقم MD:	796446
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
اللغة:	Arabic
قواعد المعلومات:	IslamicInfo
مواضيع:	الفلسفة الإسلامية، تراجم الفقهاء، ابن حزم، علي بن أحمد بن سعيد، ت. 456 هـ.
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/796446

© 2024 المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو المنظومة.

للإستشهاد بهذا البحث قم بنسخ البيانات التالية حسب إسلوب الإستشهاد المطلوب:

إسلوب APA

بدر الدين، محمد بن حسن. (2017). الإمام ابن حزم: دروس في مداواة النفوس.الوعي الإسلامي، س54, ع620، 37 - 39. مسترجع من http://search.mandumah.com/Record/796446

إسلوب MLA

بدر الدين، محمد بن حسن. "الإمام ابن حزم: دروس في مداواة النفوس."الوعي الإسلاميس54, ع620 (2017): 37 - 39. مسترجع من http://search.mandumah.com/Record/796446

© 2024 المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو المنظومة.

محمد حسن بدرالدين
باحث تونسي

الإمام ابن حزم:
دروس في مداواة النفوس

إن أقدم ترجمة وصلتنا عن حياة ابن حزم هي الترجمة التي وردت في كتاب طبقات الأمم، والتي أعدها وكتبها تلميذه صاعد الأندلسي (٤٢٠-٤٦٢هـ) (١).

فقد ذكر أن ابن حزم هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، ولد بعد صلاة الصبح في آخر يوم من شهر رمضان من عام (٣٨٤هـ)، الموافق السابع من تشرين الثاني، سنة (٩٩٤م)، في مدينة قرطبة، جوهرة الأندلس (٢).

وتوفي يوم (٢٨) شعبان، سنة (٤٥٦هـ)، الموافق (١٥) أغسطس، سنة (١٠٦٤م)، في مدينة ولبة (٣).

وحسب رواية ابن بشكوال (ت٥٧٨هـ) فإن ابنه أبا رافع هو الذي ذكر تاريخ وفاة والده، حيث قال ابن بشكوال: «ونقلت من خط ابنه أبي رافع أن أباه توفي رحمه الله عشية يوم الأحد، لليلتين بقيتا من شعبان، سنة ستٍ وخمسين وأربع مائة، فكان عمره رحمه الله إحدى وسبعين سنة، وعشرة أشهر، وتسعة وعشرين يوما» (٤).

وبين هذين التاريخين من الميلاد إلى الوفاة، امتدت حياة على امتداد اثنين وسبعين عاما، حافلة بالعلم والأدب والجدل، وعامرة بالكتابة والتأليف والتجارب، جعلته من مشاهير علماء الأندلس، ومن أكبر علماء الإسلام تصنيفا وتأليفا بعد الطبري (٢٢٤-٣١٠هـ) (٥).

أهم الدروس المستفادة من حياة ابن حزم

نستخلص من حياة ابن حزم الكثير من الدروس والعبر التربوية والعلمية، لعل أبرزها: الإخلاص للعلم، والتفاني في الدعوة إلى الحق، والدفاع عن المبدأ والثبات عليه.

ومن أهم العوامل التي ساعدته على النبوغ والإبداع، نذكر عاملين على الأقل يتعلقان بالتكوين والشخصية.

الأول: هو التكوين العميق الذي تلقاه منذ الصغر وظل ملازما له طوال حياته، فقد أخذ العلم عن عدد من العلماء والشيوخ البارزين، في مختلف معارف عصره، أخذ عن أبي القاسم الأزدي علوم الحديث واللغة والنحو، وأخذ الفقه عن مفتي قرطبة ابن دحون، وأخذ عن محمد المدحجي المنطق وعلوم الأوائل.

أما أبو الخيار بن مفلت، فكان أبلغهم أثرا ونفاذا في تلقينه أصول الفقه الظاهري، حيث وجد أرضية خصبة في قلبه ومزاجه، وروحه الساعية نحو البساطة والوضوح واجتناب التأويل، والغموض والتعقيد، وهي مظاهر كان ينفر منها نتيجة التعقيدات السياسية والاجتماعية، التي عاشها، وألقت بظلالها على حياته وميوله. فضلا عن كثرة التقلبات وانتشار المذاهب والآراء، التي كانت تعج بها قرطبة، وبلاد الأندلس عامة (٦).

وورد في لسان الميزان لابن حجر (ت٨٥٢هـ) وصف لطبيعة هذا التحول: «واشتغل في صباه بالأدب والمنطق والعربية، وقال الشعر وترسل، ثم أقبل على العلم، فقرأ الموطأ وغيره، ثم تحول شافعيا، فمضى على ذلك وقت، ثم انتقل إلى مذهب الظاهر، وتعصب له وصنف فيه ورد على مخالفيه» (٧).

وقد كان الخيار الظاهري الذي يتمسك بالظاهر والمنطقي والبديهي قريبا من نفسيته، فأقبل عليه ونصره ودعا إليه، وكان من أكبر المدافعين عنه، ونتيجة حماسه له دخل في مواجهات ومجادلات عنيفة مع أصحاب المذاهب الباطنية.

الثاني: يتعلق بشخصيته وطبيعته، فقد كان يمتلك شخصية قوية متوازنة، محكومة بالصبر والعزيمة والمواجهة. وكان يمتلك ذاكرة قوية وبديهة حاضرة، وقدرة على الاستدلال والجدل، والشجاعة في إبداء الرأي، بعيدا عن الرياء والمجاملة.

وقد جلبت له صفات الصراحة والحزم عداوة كبيرة مع معاصريه وخصومه، من ذوي السياسة والعلم. قال ابن حجر: «ثم تعصب عليه أعداؤه، فمقتوه وآذوه وطردوه، وحرقوا كتبه علانية. وله في ذلك: فإن يحرقوا القرطاس لا يحرقوا الذي تضمنه القرطاس، بل هو في صدري» (٨).

وقد ورد في الجمع بين الصحيحين للحميدي، من حديث عبد الرحمن بن هلال عن جرير قال: قال رسول الله ﷺ: «من يحرم الرفق يحرم الخير» (٩).

يبدو أن ابن حزم حرم هذا الرفق لأسباب صحية، لم يتفطن إليها حساده وخصومه، فلم يعذروه، ولا لاحظها المؤرخون فنزهوه.

يقول في كتابه «مداواة النفوس» الذي خصصه لأمراض النفس وآفاتها وعللها، مبينا أثر المرض العضوي على المزاج والسلوك: «تتغير الأخلاق الحميدة بالمرض وبالفقر وبالخوف وبالغضب وبالهرم. فارحم من منع ما منحت، ولا تتعرض لزوال ما بك من النعم بالتعاصي على واهبها تعالى، وبأن تجعل لنفسك فيما وهبك خصلة أو حقا فتقدر أنك استغنيت عن عصمته فتهلك عاجلا أو آجلا. ولقد أصابتني علة شديدة ولدت علي ربوا في الطحال شديدا، فولد ذلك علي من الضجر وضيق الخلق وقلة الصبر والنزق أمرا حاسبت نفسي فيه، إذ أنكرت تبدل خلقي، واشتد عجبي من مفارقتي لطبعي، وصح عندي أن الطحال، موضع الفرح، إذا فسد تولد ضده» (١٠).

يعترف ابن حزم في هذا المقطع الفريد، بأنه أصيب بتضخم في الطحال، اكتشف بالتجربة والملاحظة أنه عكر مزاجه وأفسد أخلاقه، فأصبح قليل الصبر كثير الانفعال، ولا ندري إن كان هذا المرض عابرا أم مستديما، والغالب أنه لازمه منذ إصابته به إلى حين وفاته، والظاهر أنه كان يعاني من مرض السكري والكلى. ولكن لماذا اعتبر الفرح فقط موطن الطحال؟ حيث قال: «صح عندي أن الطحال، موضع الفرح، إذا فسد تولد ضده».

يبدو أنه فهم بالتجربة والملاحظة أن كل عضو في الجسم، إذا تعرض للمرض أو التلف أثر تأثيرا فادحا في النفس والمزاج والسلوك، وهو بهذا الرأي كان مبدعا وسابقا لطب زمانه، وبالتالي نفهم قوله بأن الطحال هو موطن الفرح والحزن والمشاعر، إذا فسد تولد ضده. أي تولد الغضب والتوتر ونشأ الحزن والانفعال.

مرجعية القرآن

رغم الشدة التي اشتهر بها بسبب المرض، والتي أفقدته كثيرا من العلماء والمناصرين، كان ابن حزم منصفا لخصومه، لا يستكبر أن يشهد لأهل الفضل بفضلهم. فلم يكن يتوخى في جدله تحقيق انتصار شخصي، وإنما

كان يهدف إلى الوصول إلى الحق.

ومن فضائله وتواضعه الذي يشهد له به الخصوم، أنه عندما ينتصر على خصم له في المناقشة، ويرجع إلى بيته لا ينتعش بزهو الانتصار، بل يتابع التفكر والتدبر في المسائل المطروحة في النقاش، بحثا عن مزيد من التحقيق، فتحضر له أفكار جديدة، يكتشف أن مجادله كان على حق فيها، فلا يتورع أن يعود إلى المجلس نفسه، ليعلن إذعانه للحق وصدق منافسه، في جانب من جوانب الجدال، فكان شبيها بعمرو ابن عبيد (٨٠-١٤٤هـ) الذي يضرب به المثل في الإذعان للحق (١١).

وهو يستحضر القرآن الكريم في نظرته لمفهوم الجدل وبالتحديد إلى الآية الكريمة: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٦)، فيكثر من التذكير في ثنايا بحوثه وتقصياته، بأن مقصده من الجدال هو البحث والاستيعاب، والتوصل إلى النتائج السليمة، بعيدا عن التمويه المقصود، الذي يسميه الشغب، فيقول موضحا هذا المسعى: «وكلامنا هذا كلام اختصار وإيجاز وقصد، إلى استيعاب قواعد الاستدلال والبراهين الضرورية والنتائج الواجبة من المقدمات الأولية الصحيحة، وإضراب عن الشغب والتطويل الذي يكتفي بغيره عنه» (١٢).

استطاع ابن حزم بفضل ثقافته الواسعة وعمق تدينه وخبرته في الحياة، أن يقدم للمسلمين دروسا عديدة في مداواة النفوس، وعلاج عللها، وتقويم انحرافها، وقد طبق ذلك على نفسه أولا، ولقد كان تركيزه على العلم والبحث، جعله يعتكف مدة سنوات، وينقطع حتى عن أقرب الناس إليه، من أجل التقصي وجمع المعلومات وتكوين رؤية نقدية واضحة عن المواضيع التي يدرسها، وخاصة عندما تصدى لموضوع الرد على اليهود والنصارى، فقد كان جل حديثه مع الناس ومع أقاربه وقت الفراغ، عن اليهود وأخبارهم وتاريخهم، فاستغل ابن عمه عبدالوهاب بن حزم (ت٤٣٨هـ) وكانت بينهما عداوة، ذلك الاعتكاف، وسخر منه في رسالة وجهها إليه جاء فيها: «ونسيت أبا محمد حاشيتك وشيعتك، التي صرت رئيس مدارسهم، وكبير أحراسهم، تحدثهم عما كان فيهم من العبر، وتخبرهم بما تعاقب عليهم من الصفاء والكدر؛ فتارة عن السامري والعجل، وتارة عن القمل والنمل، وطورا تبكيهم بحديث التيه، وطورا تضحكهم بقوم جالوت وذويه، حتى كأن التوراة مصحفك، وبيت الحزان معتكفك» (١٣).

وقد رد عليه ابن حزم ردا كشف من خلاله عن عمق إيمانه، وصدق خلاله، وسداد رأيه، قال فيه: «سمعت وأطعت لقوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ (الأعراف: ١٩٩)، وسلمت وانقدت لحديثه عليه السلام: «صل من قطعك، واعف عمن ظلمك»، ورضيت بقول الحكماء: كفاك انتصارا ممن تعرض لأذاك، إعراضك عنه. وأقول:

فإني أبيت طلاب السفاه
وصنت محلي عما يعاب
وقل ما بدا لك من بعد ذا
وأكثر فإن سكوتي جواب (١٤).

الهوامش

١- انظر ترجمة صاعد في نفح الطيب للمقري (١٨٢/٣)، والأعلام للزركلي (١٨٦/٣).

٢- ياقوت الحموي، معجم الأدباء، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م)، (١٦٥١/٤).

٣ - ولبة: هي حاليا بالإسبانية Huelva، مدينة تقع في جنوب غرب إسبانيا، تخرج منها العديد من العلماء، أشهرهم أبوعبيد البكري الأونبي وابن خلفون. انظر الأعلام للزركلي (٣٦/٦)، وتكملة الصلة لابن الأبار (١٤١/٢).

٤- ابن بشكوال، الصلة في تاريخ أئمة الأندلس، تحقيق: عزت العطار الحسيني، مكتبة الخانجي، الطبعة الثانية، (١٣٧٤هـ، ١٩٥٥م)، (ص٣٩٣)، وانظر الحميدي، جذوة المقتبس، (ص٤٥٠).

٥- ابن حجر العسقلاني، لسان الميزان، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، دار البشائر الإسلامية، الطبعة الأولى، (٢٠٠٢م)، (٤٩٢/٥).

والمقولة هي «وهذا القدر لا يعرف لأحد من علماء الإسلام، إلا لابن جرير الطبري».

٦- الذهبي، سير أعلام النبلاء (١٥٨/١٨). والبيتان من البحر الطويل.

٧- لسان الميزان (٤٨٨/٥).

٨- المرجع نفسه، (٤٨٩/٥).

٩- محمد بن فتوح الحميدي، الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم، تحقيق: علي حسين البواب، دار ابن حزم، لبنان، الطبعة الثانية، بيروت، (١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م)، (١٩٨/١).

١٠- ابن حزم: الأخلاق والسير في مداواة النفوس، دار الآفاق الجديدة، الطبعة الثانية، بيروت، (١٣٩٩هـ-١٩٧٩م)، (ص٧١).

١١- محمد حسن بدرالدين: التفكير الكلامي في بواكيره الأولى، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، (٢٠١٥م)، (ص١٦٧).

١٢- ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل (٣٨/١).

١٣- ابن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، الطبعة الأولى، (١٩٨١م)، (١٦٣/١).

١٤- المرجع السابق، (ص١٦٤).

وأصل الحديث: «صل من قطعك، وأعط من حرمك، واعف عمن ظلمك» أخرجه أحمد في مسنده (٦٥٤/٢٨) والبيهقي في شعب الإيمان (١٤/١٠).